## المعقِد السَّادس

# رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهمِّ فالمهمِّ

إنَّ الصُّورة المستحسَنة يزيد حسنُها بتمتُّع البصر بجميع أجزائها، ويَفوت من حُسنها عند النَّاظر بقدر ما يَحتجب عنه من أجزائها، والعلم هكذا؛ من رعىٰ فنونه بالأخذ، وأصاب من كلِّ فنٍّ حظًّا كمُلت آلته في العلم.

قال ابن الجوزيِّ ـ رحمه الله ـ في «صيد خاطره»:

«جمع العلوم ممدوحٌ».

**مـن كـلِّ فـنٍّ خُـذْ ولا تـجـهـل بـهِ**
**فـالـحـرُّ مُـطَّـلِـعٌ عـلـىٰ الأسـرارِ**

يقول شيخ شيوخنا محمَّد ابن مانعٍ ـ رحمه الله ـ في «إرشاد الطُّلَّاب»:

«ولا ينبغي للفاضل أن يترك علمًا من العلوم النَّافعة، الَّتي تُعين علىٰ فهم الكتاب والسُّنَّة، إذا كان يعلم من نفسه قوَّةً علىٰ تعلُّمه، ولا يَسوغ له أن يعيب العلمَ الذي يجهله ويُزريَ بعالمه؛

فإنَّ هٰذا نقصٌ ورذيلةٌ، فالعاقل ينبغي له أن يتكلَّم بعلمٍ أو يسكت بحلمٍ، وإلَّا دخل تحت قول القائل:

أتـــانـــي أنَّ ســـهـــلًا ذمَّ جـــهـــلًا
عـلـومًـا لـيـس يـعـرفـهـنَّ سـهـلُ

عـلـومًـا لـو قـراهـا مـا قـلاهـا
ولـكـن الـرِّضـا بـالـجـهـل سـهـلُ

انتهىٰ كلامه.

وإنَّما تنفع رعاية فنون العلم باعتماد أصلين:

أحدهما: تقديم الأهمِّ فالمهمِّ، ممَّا يفتقر إليه المتعلِّم في القيام بوظائف العبوديَّة لله.

سئل مالك بن أنسٍ ـ إمام دار الهجرة ـ عن طلب العلم، فقال: «حَسَنٌ جميلٌ، ولكنِ انْظرِ الَّذي يلزمُك من حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي فالزمه».

قال أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المُثنىٰ ـ رحمه الله ـ: «من شغل نفسه بغير المهمِّ أضرَّ بالمهمِّ».

وقـــدِّم الأهـــمَّ إنَّ الـــعـــلـــم جَـــمٌّ
والـعـمـر طـيـفٌ زار أو ضـيـفٌ ألَـمّْ

والآخر: أن يكون قصده في أول طلبه تحصيل مختصرٍ في

كلِّ فنٍّ، حتَّىٰ إذا ٱستكمل أنواع العلوم النَّافعة، نظر إلىٰ ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرةً عليه، فتبحَّر فيه، سواءٌ كان فنًّا واحدًا أم أكثر.

أمَّا بلوغ الغاية في كلِّ فنٍّ، والتَّحقُّق بمَلَكته، فإنَّما يُهَيَّأُ له الواحد بعد الواحد في أزمنةٍ متطاولةٍ.

ثمَّ ينظر المتعلِّم فيما يُمَكِّنه من تحصيلها إفرادًا للفنون ومختصراتها واحدًا بعد واحدٍ، أو جمعًا لها، والإفراد هو المناسب لعموم الطَّلبة.

ومن طيَّار شعرِ الشَّناقطة: قولُ أحدهم:

**وإن تُـرِد تـحـصـيـلَ فـنٍّ تـمِّـمـهْ**
**وعـن سـواه قـبـل الأنـتـهـاءِ مَـهْ**

**وفـي تـرادف الـعـلـوم الـمـنـعُ جـا**
**إن تـوأمـانِ ٱسـتـبـقـا لـن يـخـرجـا**

ومن عرف من نفسه قدرةً علىٰ الجمع جمع، وكانت حاله ٱستثناءً من العموم.

ومن نواقض هٰذا المعقِد المشاهدة: الإحجامُ عن تنوُّعِ العلوم، والاستخفافُ ببعض المعارف، والاشتغالُ بما لا ينفع، مع الوَلَع بالغرائب، وكان مالكٌ يقول: «شرُّ العلم الغريب، وخير العلم الظَّاهر الَّذي قد رواه النَّاس».

## المعقِد السَّابع

# المبادرة إلىٰ تحصيله، واغتنام سِنِّ الصِّبا والشَّباب

فإنَّ العمر زهرة: إمَّا أن تصير بسلوك المعالي ثمرةً، وإما أن تذبُلَ، وإنَّ ممَّا تُثمر به زهرةُ العمر: المبادرةَ إلىٰ تحصيل العلم، وتركَ الكسل والعجز، واغتنامَ سِنِّ الصِّبا والشَّباب؛ امتثالًا للأمر باستباق الخيرات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨].

**وأيَّامَ الحداثة فاغتنمها**
**ألا إنَّ الحداثة لا تدومُ**

قال أحمد ـ رحمه الله ـ: «ما شبَّهتُ الشَّباب إلَّا بشيءٍ كان في كُمِّي فسقط».

والعلم في سنِّ الشَّباب أسرع إلىٰ النَّفس، وأقوىٰ تعلُّقًا ولصوقًا.

قال الحسن البصريُّ ـ رحمه الله ـ: «العلم في الصِّغر كالنَّقش في الحجر».

فقوَّة بقاء العلم في الصِّغر، كقوَّة بقاء النَّقش في الحجر، فمن ٱغتنم شبابه نال إرْبَه، وحَمِد عند مشيبه سُراه.

**اغتنم سِنَّ الشَّبابِ يا فتىٰ**
**عند المشيب يَحْمَدُ القوم السُّرىٰ**

وأضرُّ شيءٍ علىٰ الشَّباب التَّسويف وطول الأمل، فيسوِّف أحدهم ويركب بحر الأمانيِّ، ويشتغل بأحلام اليقظة، ويحدِّث نفسه أنَّ الأيَّام المستقبلَة سَتفْرُغ له من الشَّواغل، وتصفو من المكدِّرات والعوائق.

والحال المنظورة: أنَّ من كَبِرت سِنُّه كَثُرت شواغله، وعَظُمت قواطعه، مع ضعف الجسم وَوَهَنِ القوىٰ.

**ولن تُدْرَك الغايات العظمىٰ بالتَّلَهُّفِ والتَّرجِّي والتَّمنِّي.**

**ولستُ بمدركٍ ما فات منِّي**
**بِلَهْفَ ولا بِلَيتَ ولا لوَ ٱنِّي**

ولا يُتوهَّم ممَّا سبق أنَّ الكبير لا يتعلَّم، بل هٰؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلَّموا كبارًا، كما ذكره البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في كتاب العلم من «صحيحه»، وإنَّما يعسر التَّعلُّم في الكِبَر ـ كما بَيَّنه الماورديُّ في «أدب الدُّنيا والدِّين» ـ لكثرة الشَّواغل، وغلبة

القواطع، وتكاثر العلائق، فمن قدِر علىٰ دفعها عن نفسه أدرك العلم.

وقد وقع هٰذا لجماعةٍ من النُّبلاء، طلبوا العلم كبارًا فأدركوا منه قَدْرًا عظيمًا، منهم القفَّال الشَّافعيُّ ـ رحمه الله ـ .